٣٢ صفحة

ثمنها في بيروت ١٠ قروش

دراسات قصيرة في الادب والتاريخ والفلسفة

— ١ —

الحجاج بن يوسف الثقفي

ترجمته — شخصيته السياسية والادارية والحربية

والمختار من خطبه

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

بيروت

١٣٦٠هـ — ١٩٤١م

تطلب من مكتبة منيمنة — شارع المعرض * بيروت

مطبعة الكشاف ـ بيروت

الكلمة الاولى

هذه دراسات قصيرة بعثت الحاجة اليها على اصدارها بهذا الشكل المتواضع في هذه الحقبة العصيبة . ولقد احببت ان تتميز بامور :

الشمول في البحث
والدقة في التأليف
التنظيم في العرض
والاتجاه القويم

ومع انها تنحو النحو العلمي فانها ليست بعيدة عن متناول القارىء العام اذ كشفت فيها عن بعض الحقائق التي لم تستقص بعد والتي كانت مغمورة في بطون التاريخ .

وبما ان هذه الدراسات ملخصة من دراسات اوسع منها في الاكثر او هي في الحقيقة اطار لدراسات اوسع مجالاً فانني استغنيت هنا عن الاشارة الى المصادر او الرجوع بالحقائق والاراء الى مظانها .

هذا كل ما قصدت منها ولعلي بالغٌ به بعضَ ما اريد .

ع . ف .

الحجاج بن يوسف الثقفي

مولده ونسبه : ولد الحجاج بالطائف عام ٤٢ هـ فيما قيل (الطبري – ليدن – ٢ : ١٦) او عام ٤١ هـ – ٦٦١ م كما يقترح لامنس (دائرة المعارف الاسلامية – الحجاج) . وابوه يوسف بن الحكم بن ابي عقيل بن مسعود بن عامر ، وامه فارعة بنت عروة بن مسعود الصحابي المشهور . ولقد كانت امه اولا زوجة المغيرة بن شعبة ثم طلقها فتزوجها يوسف بن الحكم . اما اسمه فكان كليباً .

اسرته والتعليم : ولا شك في ان الحجاج نشأ في اسرة مثقفة فقد كان ابوه يوسف معلماً ، وكان هو واخوه معلمين بالطائف . وكذلك كانت اخته زينب تجمع الى معرفة القراءة الاهتمام بالامور العامة ، حتى ان الحجاج لما تغلب على ثورة ابن الاشعث بعث بكتاب الى عبد الملك وبكتاب آخر في الموضوع نفسه اليها . وكانت زينب فوق ذلك مترفة تشتو بمكة وتصيف بالطائف ، وكان لها جمال ودلال حملا الشاعر الثقفي محمد بن عبد الله بن نمير على ان يتغزل بها ، وتغزل بها عمر ابن ابي ربيعة فيما قيل

١ – ويظهر ان قوماً ارادوا ان يروا في الحجاج وآله ضعة ومسكنة لانهم كانوا معلمين ، فقد هجاه مالك بن الريب المازني فقال :

فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده ... اذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف ... كما كان عبداً من عبيد اياد
زمان هو العبد المقر بذنبه ... يراوح صبيان القرى ويغادي

وفي الحجاج قال شاعر آخر :

اينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الازهر

يعرض به لانه كان معلماً يعلم الصبيان القرآن الكريم ويأخذ اجره على ذلك ارغفة

مختلفة الاشكال والالوان والاحجام ، فبعضها صغير اسود كفلكة المغزل وآخر ابيض كبير كصفحة البدر

وكذلك قال شاعر ثالث من اهل الطائف يخاطب فيما يظهر اهل العراق :

كليب تمكن في ارضكم　　　وقد كان فينا قليل الخطر

وهجا الحجاج ايضاً شعراء آخرون .

ولما اساء الحجاج معاملة انس بن مالك (خادم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) اذ خاطبه بقوله : « لا مرحباً بك ولا أهلا يا ابن خبيثة ، شيخ ضلالة ، جوالة في الفتن ، مرة بن ابي تراب (علي بن ابي طالب كرم الله وجهه) ومرة مع ابن الزبير ومرة مع ابن الجارود (ثائر على الحجاج) » غضب عبد الملك لذلك وكتب الى الحجاج يوبخه ويقول له : « اما تذكر حال آبائك في الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بايديهم في اوديتهم ومياههم ؟ انسيت حال آبائك في اللؤم والدناءة في المروءة والخلق ؟ »

ولكن هذا كله بلا ريب تحامل على نسب الحجاج ، فان قسوة الحجاج وشدته وظلمه حملت الناس على كرهه وبغضه وهجائه وعلى ان يضعوا من شرف التعليم في سبيل الحط من قدره . ويكفينا ان نعلم ان جد الحجاج لامه ، عروة بن مسعود ، كان رجلا تضرب به الامثال في العظمة والجاه ، وفيه وفي المغيرة بن عبد الله بن مخزوم نزلت الآية الكريمة : « وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » يريدون بذلك ان يقولوا لماذا نزل القرآن على محمد بن عبد الله ولم ينزل على عروة بن مسعود او الوليد ابن المغيرة وهما اعظم منه جاها ؟ — ساء قولهم .

دفاع ابن خلدون : ومع ان ابن خلدون يقول في مقدمته :

ان التعليم لهذا العهد (يعني في زمنه) من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز اهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم . . . و (قد) شمخت انوف المترفين واهل السلطان عن التصدي للتعليم واختُص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقراً عند اهل العصبية والملك » فانه استثنى الحجاج من ذلك . فقال : « والحجاج بن

يوسف كان ابوه من سادات ثقيف ، واشرفهم مكاناً من عصبية العرب ومناهضة قريش من الشرف ما علمت ؛ ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش وانما على ما وصفناه من الامر الاول في الاسلام . . . (حينما) لم يكن العلم بالجملة صناعة ، انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ ، فكان اهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم به هدايتهم ، والاسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الامم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للامة لا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا عاذل الانفة ، ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين ، بعث في ذلك من اصحابه العشرة فمن بعدهم . . . »

ترك التعليم : ثم ان يوسف بن الحكم وابنه الحجاج تركا التعليم وغادرا الحجاز وانضما الى جيش حبيش بن دلجة القيني الذي ارسله مروان بن الحكم لقتال عبدالله بن الزبير . ولكن جيش حبيش بن دلجة انهزم ، وانهزم فيه الحجاج وابوه « وما نجوا يومئذ الا على جمل واحد » .

وقد عرض على الحجاج ولاية تبالة ولكنه لما وصل اليها احتقرها لصغرها وبعدها عن العمران وتركها .

في الشرطة : ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع وزير عبد الملك فكان في عديد شرطته الى ان شكا عبد الملك نفسه ان بعض الفوضى يسود في جيشه ، فان الجند لم يكونوا ينزلون او يرحلون في الاوقات المعينة ولا على نظام ما ، فاقترح روح بن زنباع على عبد الملك ان يولي الحجاج على جنده فينتظم امرهم ففعل عبد الملك فلم يكن بعدئذ احد يتخلف عن الرحيل او النزول الا اعوان روح لان الحجاج كان من قبل واحداً منهم ولذلك لم يهابوه في مركزه الجديد ؛ حتى وقف ذات يوم عليهم وكانوا يأكلون وقال لهم : « ما يمنعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟ » فسخروا منه .

حينئذ امر بهم فجلدوا بالسياط وطوّفهم بالعسكر وامر بفساطيط روح بن زنباع فاحرقت النار . واحتج روح لعبد الملك ، ولام عبد الملك الحجاج ، ولكن الحجاج قال له : « انت والله فعلت ذلك يا امير المؤمنين فان يدي يدك وسوطي سوطك » . وايقن عبد الملك ان عمل الحجاج كان في محله فأعجب به . ومن ذلك الحين تقدم الحجاج في منزلته، وكان ذلك اول ما عُرف من كفائته.

في الجيش : ولما سار عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير في العراق عام ٧٢ هـ — ٦٩١ م كان الحجاج بن يوسف في جيشه على الساقة (مؤخر الجيش) ينزل بنزوله ويرحل برحيله حتى قتل مصعب واراد عبد الملك الرجوع من الكوفة الى الشام، ولم يبق له من الاعداء الا عبد الله بن الزبير — اخو مصعب . . .

قائد حملة : لم يجد عبد الملك القائد الكفوء لقتال ابن الزبير، فلما اراد الرجوع الى الشام قام اليه الحجاج وقال : « يا امير المؤمنين، اني رأيت في منامي اني اخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعثني اليه وولّني قتاله . » وسواء اكانت هذه الرؤيا حقيقة ام لم تكن فالمهم فيها ان الحجاج تعرض لعبد الملك على الشكل القريب من رغبة عبد الملك . . . وفصل الحجاج من الكوفة الى الحجاز في جيش يبلغ الفين او ثلاثة آلاف من اهل الشام (جمادي الاول عام ٧٢) فلم يعرض المدينة بل نزل في الطائف —بلده— في شعبان ٧٢ — كانون الثاني ٦٩٢ ، وجعل هنالك يستعد للسير على مكة . في هذه الاثناء كان الحجاج يرسل البعث بعد البعث لمناوشة ابن الزبير فينهزم اصحاب ابن الزبير ويظفر اصحاب الحجاج .

واخيراً وجد الحجاج ان المناوشة قليلة الجدوى « فكتب الى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخوله الحرم (باحة المسجد — والكعبة) عليه ويخبره ان شوكته قد كلت وتفرق عنه عامة اصحابه ويسأله ان يمده برجال، فأمده عبد الملك بخمسة آلاف رجل عليهم طارق بن عمرو . عندئذ سار الحجاج بالجيش من الطائف الى مكة وحاصر ابن الزبير ليلة هلال ذي القعدة ٧٢ — نيسان ٦٩٢

وكان الحصار يزيد في قوة الحجاج ويضعف ابن الزبير ، فان جيش الحجاج كان

معسكراً ما بين الحجون الى الصفا حتى تعذر على اصحاب ابن الزبير ان يصلوا الى عرفة فامتنع عليهم الحج ، بينما كانت طريق عرفة حرة في وجه الحجاج فحج هو في ذلك العام (٧٢ هـ) بالناس . « وكان الزاد يصل الى جيش الحجاج بكثرة بينما كان الامر ضيقاً على ابن الزبير فغلت الاسعار عنده وحصلت مجاعة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها في اصحابه ، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين ، وان بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحاً وشعيراً . وكان اهل الشام ينتظرون فناء ما عنده . وكان (ابن الزبير) يحفظ ذلك ولا ينفق الا ما يمسك الرمق ويقول : « أنفسُ اصحابي قوية ما لم يفن (هذا الزاد) » .

*

نصب الحجاج الآن المنجنيقات على جبل ابي قبيس وجعل يضرب مكة في الفينة بعد الفينة ، اما المعارك الفعلية فكانت تدور في بطن مكة وفي الحرم ايضاً . واتفق انه في اثناء ضرب مكة بالمنجنيق رُعدت السماء فتشاءم اهل الشام وكفوا عن الرمي فرفع الحجاج حينئذ طرف ردائه وغرزه في منطقته ، ثم رفع حجر المنجنيق ووضعه فيه ثم قال : ارموا ، ورمى معهم . وفي اليوم التالي جاءت صاعقة فقتلت من اهل الشام اثني عشر نفراً فزاد تشاؤمهم ولكن الحجاج قال لهم : « يا اهل الشام ، لا تنكروا هذا فاني ابن تهامة وهذه صواعقها ، وان الفتح قد حضر فابشروا ، وسيصيب اصحاب ابن الزبير ما اصابكم . » وفي غد ذلك اليوم اصابت الصاعقة نفراً من اصحاب ابن الزبير فذكّرهم الحجاج بقوله لهم بالامس فمضوا على القتال . ثم ان عبد الله بن عمر بن الخطاب طلب من الحجاج ان يقف ضرب مكة بالمنجنيق في ذي الحجة (٧٣ هـ) كيلا يمنع الناس من اداء فريضة الحج فوقف الحجاج القتال في ذلك الشهر .

*

وبعد قتال سبعة اشهر على التحقيق مل اصحاب ابن الزبير الدفاع فجعلوا ينفضّون عنه ويذهبون الى الحجاج يطلبون منه الامان ، فعل ذلك منهم نحوٌ من عشرة آلاف فيهم ابناه خُبيب وحمزة . ولقد هم ابن الزبير نفسه ان يستسلم للحجاج وذهب يستشير في ذلك امه اسماء بنت ابي بكر الصديق فثبتته على مبدأه وذكرته الآخرة فخرج عندئذ

بلا درع يقاتل قتال اليائس حتى خر صريعاً في جمادي الثانية ٧٣ — تشرين الاول ٦٩٢ على الاصح .

وكان عمرُ ابن الزبير يوم قتل ثلاث وسبعون سنة وعمر الحجاج اثنتان وثلاثون . وامر الحجاج بابن الزبير فصلب بعد ان حزَّ رأسه ثم بعث بالرأس الى المدينة فنصب بها وبعدئذ ارسل — مع رؤوس اخرى — الى الشام . ولما دخل الحجاج المدينة بايع من بها من قريش لعبد الملك بن مروان ، واستتب الامر له في كل مكان .

ولاية الحجاج الاولى : لما قضى الحجاج على حركة ابن الزبير كافأه عبد الملك بان جعله والياً على مكة واليمن واليمامة (٧٣ هـ) وفي العام التالي اضيفت المدينة الى ولايته . ولقد استطاع الحجاج ان يعيد الاطمئنان الى الحجاز في نحو عامين (٧٣—٧٥هـ) ولكنه لم يقم فيه باصلاح عمراني يذكر ، الا انه نقض الكعبة (هدمها) واعاد بناءها على ما كانت عليه اولا ؛ وذلك ان الكعبة كانت قد هدمت في ايام يزيد فاعاد ابن الزبير بناءها ولكنه زاد في مساحتها وزينها بالصور واقام فيها الاعمدة ، فرأى الحجاج ان ذلك ينقص قيمتها التاريخية ويغض من جلالتها فنقضها واعاد بناءها على المقاييس الاولى من جديد ، ثم كساها الديباج . وكذلك بنى الحجاج مسجداً في بني سلمة بالمدينة .

بعدئذ تتبع الحجاج الذين تقاعسوا عن نصرة عثمان بن عفان لما هاجمه المتآمرون وقتلوه في داره فعاقبهم عقابا شديداً حتى اتهمه خصومه بانه « استخف باصحاب رسول الله وختم في اعناقهم »

ولايته على العراق : وفي عام ٧٤ هـ — ٦٩٣ م اشتدت شوكة الازارقة وهم اتباع نافع بن الازرق الخارجي المشهور وكان يقول ان جميع الناس سوى الخوارج كفرة يجب ان يقتلوا مع نسائهم واطفالهم ، فارسل اليهم عبد الملك جيوشاً كثيرة فهزموها وغلبوا على الاهواز (جنوبي فارس) والعراق . ثم توفي والي العراق بشر بن مروان — اخو عبد الملك — فزاد حبل الامن اضطرابا فتلفت الخليفة فلم يجد رجلاً يعيد الامن في العراق الى نصابه الا الحجاج فولاه العراقيين ، وهكذا اصبح الحجاج

منذ عام ٧٤ هـ والياً على الحجاز كله واليمن واليمامة والعراقين (البصرة والكوفة) .

ترك الحجاج الآن المدينة في اثني عشر راكباً متوجهاً نحو العراق — ولم يكن جاهلاً باخباره ودخائله — وسار الى الكوفة قبل ان يذهب الى البصرة ودخلها (رمضان ٧٥ — كانون الاول ٦٩٤) ثم اتجه الى مسجدها ورقى المنبر وقرأ كتاب الخليفة على الناس بتوليته، والقى خطبة مشهورة سأوردها هنا لانها تمثل السياسة الادارية التي اراد الحجاج ان ينفذها في ولايته الجديدة .

حدث عبد الملك بن عمير الليثي ، قال :

بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة — واهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه — اذ اتى آت فقال : « هذا الحجاج قد قدم اميراً على العراق ! » فاذا به (بالحجاج) قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها اكثر وجهه ، متقلداً سيفاً متنكباً قوساً يؤم المنبر .

فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، (ثم) مكث ساعة لا يتكلم ، فقال (بعض الناس لبعض) : قبح الله بني امية اذ يستعملون مثل هذا على العراق . ثم قال عمير بن ضابئ البرجمي : « الا احصبه لكم » — يعني ارميه بالحجارة ، وكان بعضهم قد اخذ حصى يريد ان يحصبه بها — فقالوا : « امهل حتى ننظر »

فلما رأى (الحجاج) عيون الناس اليه حسر اللثام ونهض فقال :

(انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني) [1]

يا اهل الكوفة ، اني لاحمل الشر بحمله ، واحذوه بنعله واجزيه بمثله . واني لارى ابصاراً طامحة واعناقا متطاولة ، ورؤوساً قد اينعت [2] وحان قطافها واني لصاحبها وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق .

(هذا اوان الشد فاشتدي زيم   قد لفها الليل بسواق حطم

---

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي . ابن جلا : البين الرأي والامر — طلاع الثنايا (الطرق في الجبال) : المتغلب على الصعاب . وضع العمامة : رفع طرفها عن وجهه .

(٢) اينع الثمر : نضج .

ليس براعي ابـل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم) (٣)
(قـد لفهـا الليـل بعصبلي اروع خرّاج من الدوي
مهاجر ليس باعرابي) (٤)
(قد شمرت عن ساقها فشدوا وجـدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عُرُدُ مثل ذراع البَكر او اشد
لا بد مما ليس منه بد » (٥)

اني — والله — ، يا اهلَ العراق ومَعدِن الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، ما يُقَعقع لي بالشنان (٦) ولا يغمز جانبي كتغماز التين (٧) . ولقد فُررت عن ذكاء وفُتشت عن تجربة وجريت الى الغاية القصوى . وان امير المؤمنين — اطال الله بقاءه — نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها (٨) فوجدني امرّها عوداً واصلبها مكسرا فرماكم بي لانكم طالما اوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي .

اما والله لالحونّكم لحوَ العصا ولاقرعنّكم قرع المَروة ولاعصبنّكم عصب السَلَمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل (٩) ، فانكم لكأهل « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغَداً من كل مكان ، فكفرت بانعُم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١٠) » .

واني والله لا أعدُ الا وفيت ، ولا اهُمّ الا امضيت (١١) ، ولا أخلُق الى فريت (١٢) فاياي وهذه الشفعاء والزُرافات والجماعات وقالاً وقيلاً ، وما تقول ؟ وفيم انتم وذاك ؟ اما والله لتستقيمُنّ على طريق الحق او لادعنّ لكل رجل منكم شغلا في جسده .

---

(٣) يروى الشعر لرويشد بن رميض العنبري . الشد : الجري . زيم : اسم ناقـة . حطم : الذي يجهد الناقة . وضم : قطعة خشب يقطع اللحام اللحم عليها . (٤) العصبلي : الشديد . اروع : ذكي الفؤاد . الدوى : الصحراء . مهاجر : (حضري) . (٥) عرد شديد . البكر . ولد الناقة . (٦) اخوف باحداث الاصوات ورائي . الشن : الجلد اليابس . (٧) لا اسكت على الضيم . (٨) الكنانة جعبة السهام . عجم العود عضه ليختبر قوته . (٩) لحا . قشر . مروة الحجر . قرع ضرب . السلمة شجر ذو شوك . . . يقصد الحجاج انه سيسير فيهم سيره شديدة حازمة (١٠) القرآن الكريم ١٦ (النحل) ١١٢ . (١١) نفذ (١٢) خلق قدّر . فرى . قطع

وان امير المؤمنين امرني باعطائكم اعطياتهم ، وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صُفرة . وإني اقسم بالله لا اجد رجلا تخلف بعد اخذ عطائه بثلاثة ايام الا سفكت دمه وانهبت ماله وهدمت منزله .

ولقد انطوت خطبة الحجاج على ثلاثة امور :

١ — تقريع لاهل الكوفة خاصة .

٢ — طلب بالسير مع المهلب بن ابي صفرة لقتال الخوارج .

٣ — تصريح بانه مخالف للولاة الذي سبقوه وانه سيعاملهم بالحزم والشدة .

*

واتفق ان تأخر عن الموعد الذي ضربه الحجاج رجل شيخ اسمه عمير بن ضابيء البرجمي [1] ، ثم جاء بعد ثلاثة ايام يبدي عذراً من ضعفه فاراد الحجاج في اول الامر ان يعفو عنه ولكن ذكروا له ان هذا الرجل دخل على عثمان بن عفان مقتولا فوطيء بطنه . عندئذ امر الحجاج بقتله وقال له : « ان في قتلك صلاح المسلمين » ، وامر منادياً فنادى الا ان عمير بن ضابيء اتانا بعد ثلاثة وكان قد سمع النداء فامرنا بقتله ، الا ان الذمة قد برئت من رجل رأيناه بعد هذا البعث متخلفا .

والحجاج اول من اوجد عقوبة القتل على مثل هـذا الذنب فقد كان الرجل اذا خالف امر الوالي ايام عمر بن الخطاب وعثمان وعلي تنزع عمامته ويُقام للناس ويشهر امره . فلما ولي مصعب بن الزبير العراق اضاف الى ذلك حلق الرؤوس واللحى . فلما ولي بشر بن مروان زاد فيه فصار المذنب يرفع عن الارض ويسمر في يديه مسماران في الحائط ، فربما مات وربما خرق المسمار كفه فسلم . فلما جاء الحجاج قال : هذا لعب ، اضربوا عنه من يخلّ بمكانه من الثغر (يعني من يتهامل في تنفيذ اوامر الحكومة) ، فكان الحجاج اول من عاقب بالقتل على ذلك .

تنظيم الادارة : اراد الحجاج ان ينظم العراق في سبيل القضاء على ما فيه من الفوضى فجعل يستعين بمن يثق بهم ، يختارهم من اقاربه او من ابناء بلده فقد عين اخاه

---

(١) الذي اراد ان يحصب الحجاج في المسجد اثناء الخطبة .

محمداً والياً على اليمن وعين عروة بن المغيرة اخاه من امه عـلى الكوفة ومطرف بن المغيرة عـلى المدائن وحمزه بن المغيرة على همذان والحكم بن ايوب الثقفي اميراً على البصرة .

واحب الحجاج ان يتألف بعض الناقمين على بني اميه من اهل العراق ولكنه لم يشأ ان يتساهل مع اهل الكوفة والبصرة خاصــة . الا ان اهل البصرة ثاروا عليه مرات كثيرة فكان اول ثوراتهم ثورة عبد الله بن الجارود وسبب ذلك ان مصعب ابن الزبير لما ولي العراق من قِبَل اخيه عبد الله بن الزبير زاد في اعطيات اهل العراق مائةَ درهم مائة درهم اكتساباً لقلوبهم فاراد الحجاج ان يرد الاعطيات الى ما كانت عليه فقاومه العراقيون بزعامة ابن الجارود هــذا ، ثم انهم انتهزوا فرصة اشتغاله بالخوارج وخرجوا عليه ، ولكن الحجاج هزمهم (عام ٧٦ هـ) .

وكذلك تحرك الزنج بالبصرة عقب حركة ابن الجارود وهزموا للحجاج جيشاً ولكنه ارسل اليهم جيشاً آخر وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فاستقامت البصرة عندئذ كلها للحجاج .

الخوارج : على ان الذي اقلق الحجاج تماماً وشل يده عن الفتوح والاصلاح كان ثورة الخوارج من الازارقه والصفرية خاصة فقد ولى الحجاج المهلب بن ابي صفره وعبد الرحمن بن مخنف قتالهم ولكن الازارقة كروا على عبد الرحمن وقتلوه وهزموا جيشه ، اما المهلب فقد ثبت لهم .

ولكن شأن الصفرية كان اشد فان بعض رؤوسهم حج عام ٧٥ هـ وكان فيهم شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني . واتفق ان حج عبد الملك في ذلك العام فاراد شبيب ان يقتل عبد الملك فلم يتهيأ له ذلك ، وبلغ عبد الملك الخبرُ فاوعز الى الحجاج ان يطلب الخوارج بكل وجه . ومع ان شبيباً كان في مائة وعشرين رجلا من اصحابه فانه هزم جميع الجيوش التي بعث بها اليه الحجاج وتسمى بامير المؤمنين واستطاع ان يدخل الكوفة نفسها، وذلك كله عام ٧٦ هـ .

وفي مطلع عام ٧٧ هـ اشتد امر شبيب الخارجي واجتمع له ثمانمائة رجل وهزم جيوش الحجاج ودخل الكوفة مرة ثانية وبنى فيها مسجداً ظل قائماً الى القرن الهجري

الرابع . واخيراً لقي شبيب جيوش الحجاج وعليها سفيان بن الابرد عند جسر دُجيل الاهواز فاقتتل القوم طول النهار ، فلما كان المساء رجع شبيب ليقطع الجسر الى الضفة الثانية فزلت رجل فرسه وغرق عام ٧٧ على الارجح (٦٩٧ م) .

الا ان مهلك شبيب لم يقض على حركة الخوارج بل ظلوا بعد ذلك يقاومون المهلب بن ابي صفرة ثمانية عشر شهراً ، ولكن بعد قتال عام تام استطاع المهلب ان ينقذ فارس كلها من قبضتهم . الا ان الخوارج اختلفوا فيما بينهم ثم قاتل بعضهم بعضا شهراً كاملا . ولم يكد عام ٧٧ ينتهي حتى كان الحجاج قد تغلب عليهم جميعاً فانصرف الى الفتوح في الشرق والى الاعمال العمرانية في العراق .

*

الفتوح في المشرق : بعد ان تغلب الحجاج على الخوارج واقر الامن في العراق انصرف يتهيأ لفتح المشرق . ففي عام ٧٨ هـ ولي الحجاج بن يوسف عبيد الله بن ابي بكرة على سجستان ، وامره (اول عام ٧٩) بغزو بلاد الترك ، وكان ملكها زُنبيل* مصالحاً للمسلمين يؤدي اليهم الخراج ، ولكن ربما امتنع منه عاماً بعد عام . الا ان عبد الله انهزم ، فساء ذلك الحجاج فجهز جيشاً عظيما من اهل البصرة عشرين الفاً ومن اهل الكوفة عشرين الفاً وزودهم بالعُدد واتحفهم بالاعطيات حتى كان جيشهم يدعى جيش الطواويس ، وامّر عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث .

وحدث خلاف في سياسة الحرب بين الحجاج وبين ابن الاشعث حمل ابن الاشعث على عصيان الحجاج وخلعه ومحاربته (٨١ هـ — ٧٠٠ م) . بعدئذ خلع ابن الاشعث عبد الملك ايضاً وتلقب بالقحطاني وتسمى بامير المؤمنين ثم دخل البصرة واستمال اهلها ، فنشب بين الحجاج وبين ابن الاشعث معارك دامت نحو مائـة يوم سجالا حتى كانت معركة دير الجماجم (٨٢ هـ — ٧٠١ م) وانهزم فيها ابن الاشعث فهرب واختبأ لدى زنبيل ملك الترك زمناً طويلا . الا ان الحجاج كتب الى زنبيل يغريـه بانه يعفيه من الخراج بضع سنوات ويرهبه اخرى بان يغزو بلاده بمليون رجـل . واحب زنبيل ان

---

* في بعض المصادر : رتبيل ولكن زنبيل اصح .

يسترضي الحجاج فغدر بابن الاشعث وارسل رأسه اليه . وعلى كل فان حركة ابن الاشعث انتهت عمليا نحو عام ٨٤ او ٨٥ هـ — ٧٠٤ م .

بناء واسط : واراد الحجاج ان يتخلص من مصاعب السكنى في البصرة والكوفة فبنى بينهما مدينة سماها واسطاً وجعلها معسكراً للجنود الشامية وقد قضى في بنائها نحو ثلاثة اعوام (٨٣ — ٨٦ هـ ٧٠٢ — ٧٠٥ م)

التوغل في المشرق : في هذه الاثناء توفي المهلب بن ابي صفرة وتوفي ابنه المغيرة ايضاً (٨٢ هـ) فولى الحجاج يزيد بن المهلب مكان ابيه فتغلب على قلعة باذغيس التي كانت من احصن قلاع المشرق . ولكن الحجاج عزل يزيد (عام ٨٥هـ) وولى مكانه اخاه المفضل بن المهلب ففتح باذغيس نفسها وغزا آخرون وشومان .

الحجاج والوليد : وكان الحجاج قد اشار على عبد الملك ان يعزل اخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويجعلها لابنه الوليد ثم لسليمان . فلما توفي عبد الملك في شوال عام ٨٦هـ واصبح الوليد خليفة حفظ الوليد للحجاج هذه اليد وتركه والياً على كل المقاطعات التي كان يليها الا ان سليمان اصبح عدوا للحجاج .

استئناف الفتوح : ثم ان الحجاج ولى قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان فقدمها عام ٨٦ هـ — ٧٠٥ م وجعل في كل صيف يقطع الى ما وراء النهر ثم يرجع في الخريف الى مرو ؛ فغزا بلخ وطخارستان وفرغانة وثبت هنالك ملك العرب اما صلحاً او عنوة . وفي عام ٨٧ هـ اغار على بخارى وغزا بيكند وهي اقرب مدنها ، ولكن الصغد استمدوا من حولهم وهاجموا العرب بجيش كثيف واخذوا الطرق عليهم وانقطعت اخبارهم فاشفق الحجاج على الجند وامر لهم بالدعاء في المساجد . وبعد كفاح طويل استطاع قتيبة ان يستولي على المدينة . وفي عام ٨٩ هـ غزا قتيبة مدينة بخارى ولكن لم ينجح فكتب الى الحجاج بذلك فطلب الحجاج من قتيبة ان يصور المدينة ففعل قتيبة وارسل الصورة الى الحجاج فدرسها الحجاج ثم اشار بالخطة الصحيحة ، فاستطاع قتيبة الى يدخل بخارى (٩٠ هـ) .

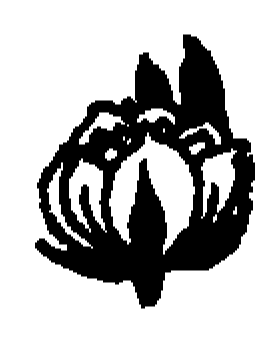
وظل قتيبة يتوغل في المشرق حتى وصل الى كاشغر على حدود الصين (٩٦ هـ ٧١٥ م) واستطاع ان يأخذ الجزية من ملوك تلك البلاد وان يملي عليهم بعض

الشروط . ولكن فتح العرب لتلك الاصقاع لم يكن ذا صبغة سياسية فعالة ، وإن كان قد نشر الثقافة الاسلامية فيها .

فتح الهند : وولى الحجاج ابن عم له اسمه محمد بن القاسم فما زال يفتح في الهند بلداً بلداً حتى وصل الى عاصمتها دَيْبُل وحاصرها زمناً طويلا ثم حارب اهلها امام الاسوار وهزمهم فارتدوا الى المدينة . حينئذ امر بالسلالم فنصبت واصعد عليها الرجال وفتح المدينة عَنْوة وانزل فيها اربعة آلاف من المسلمين وبنى فيها جامعاً . ثم جعل يأتي ماتبقى من بلدان الهند بلداً بلداً فيظفر بها حتى غلب على غربي الهند كلها وحمل الهنود على ان يطلبوا منه الصلح ويخضعوا لما يطلبه منهم . كل ذلك وعمره فيما يروي المؤرخون سبعة عشر عاماً

موت الحجاج : وبينما كانت الفتوح العربية في المشرق على اشد اتساعها توفي الحجاج لما وقعت في جوفة الاكلة (السرطان او القرحة ؟) وذلك على الاغلب في رمضان ٩٥ هـ — ٧١٥ م فتوقفت الفتوح عند الحد الذي كانت قد بلغته .

ومات الحجاج ولم يخلف الا سيفاً ومصحفاً وعشرة دراهم فضة مع كل ما اراد خصومه ان يتهموه به من القسوة والظلم ومصادرة الاموال .



اصلاحات الحجاج الادارية والعمرانية

١ — بناء مدينة واسط — وقد مر الكلام عليها — (ص١٤)

٢ — منع الهجرة الى المدن لئلا تقل الزراعة في العراق وهي عماد ثروته والمورد العظيم لبيت المال .

٣ — مسح العراق — قاسه وعين اماكنه وقيد الاملاك فيه .

٤ — كرى (اعاد حفر) الاقنية الكبرى بين الفرات ودجلة وكانت قد طمرت في اثناء الحروب والفتن منذ الفتح الاسلامي . ثم انشأ اقنية جديدة .

٥ — جفف المستنقعات وزرع مكانها . وكذلك وسع الزراعة الى الاراضي البور .

٦ — عني بالنظافة العامة فقتل الكلاب الشاردة وحبس من بال في الشارع بمدينة واسط .

٧ — وحد المكاييل والموازين والمقاييس في العراق فقد كانت العادة — ولا تزال الى اليوم — ان يكون لكل بلد اوزان خاصة ومقاييس خاصة فمنع الحجاج ذلك وحمل الجميع على اتخاذ مقاييس ومكاييل واحدة .

٨ — نقل الدواوين — كانت لغة الدواوين — اي دوائر الحكومة وفي ما يتعلق بالسجلات المالية خاصة — في سورية اليونانية وفي مصر القبطية وفي العراق والمشرق البهلوية فقلبت كلها في ايام عبد الملك والوليد الى العربية . وسواء أكان عبد الملك صاحب الفكرة الاساسية ام الحجاج فالمهم ان الحجاج هو الذي نفذ الفكرة في المشرق (٧٨ هـ ٦٩٧ م) .

٩ — سك العملة = وفي عام ٨٦ هـ ضربت النقود الاسلامية : الدينار من الذهب ويساوي نحو نصف دينار بالعملة الحالية ذهباً ؛ والدرهم من الفضة . ثم ان الحجاج ضرب الدراهم = قبل ان يفعل ذلك احد غيره على ما يظهر = ونقش عليها « قل هو الله احد » ونهى ان يضرب الدراهم احد غيره . الا ان رجلا يهودياً اسمه سمير ضربها فاخذه الحجاج ليقتله فترضاه سمير بكل سبيل وصنع له «صنج الاوزان» (ميزان العملة) فلم يتركه الحجاج بل قتله .

١٠ – حفظ الامن في العراق بايجاد نظام يمنع خروج الناس من بيوتهم بين صلاة العشاء وصلاة الصبح لئلا يدع مجالا للصوص او الثوار من الخوارج وغيرهم أن يحيكوا المؤامرات او يبيّتوا المعارك . وكل مخالفة لهذا النظام كان القتل عقابها .

١١ – نظم الجيش فلم تبقَ صفوف الجيش مفتوحة امام كل راغب بل اصبح للالتحاق بالجيش قوانين، منها ان يكون الجندي صغير السن، فالحجاج كان يفضل الاحداث على الشيوخ . وكذلك اشترط في الجندي ان يكون صحيح الجسم فكان يجرّد كل جندي من ثيابه ويستعرضه جيئة وذهاباً كي يتأكد من خلوه من كل عيب يمنعه من القيام بواجب الجندي .

*

وكان روح الادارة يسيطر على كل ما يقوم به الحجاج، وكان يتبع سياسة معروفة مخطوطة كان فيها صريحا اشد الصراحة ، يقول في الدرجة الاولى انه ينفذ ما عهد اليه من قِبَل الخليفة ويهتم بالدرجة الثانية لكل صغيرة وكبيرة تبدر من العمال ومن الشعب . ولا يستطيع احد ان ينكر ان العراق خاصة كان في عصر الحجاج عصر زهو وعمران واطمئنان وادارة حازمة .

صفة الحجاج : يستنتج من جميع المصادر ان الحجاج لم يكن ذا بسطة في الجسم وانه لم يكن قويا، بل كان ضئيل الجسم قصيراً ، احول ، اخفش العينين كليهما، مضطرب الرجلين معوجّ الساقين . ولقد حمله ضعفه الجسدي هذا على ان يكون كثير الحذر حتى رمي بالجبن .

اوجه شخصيته : كان الحجاج من اعاظم الرجال ذكره ابن خلدون في « الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفّت على الملوك اخبارهم كالحجاج وبني المهلب والبرامكة . . . ففير نكير الالماع بآبائهم والاشارة الى احوالهم لانتظامهم في عداد الملوك » . وكان من اعظم اوجه شخصيته اخلاصه لبني امية حتى امتدحه المنصور على

ذلك وقال فيه : « رجل استكفاه قوم فكفاهم ، والله لوَدِدْتُ اني وجدت مثل الحجاج حتى استكفيهُ وانزله احد الحرمين . . . ان الحجاج ائتمنه قوم فادى اليهم الامانة» . ولقد غالى الحجاج في الاخلاص لبني مروان وتتبع اعداءهم وقتل خصومهم .

ومن اوجه شخصيته انه كان يحب الاستئثار بالقوة والسلطان ، ولكنه كان قليل التساهل قليل المرونة ، ينقصه حلم معاوية بن ابي سفيان ، ولا غرو فقد ذكروا انه كان يحب الصراحة .

على ان ميزته الكبرى كانت حزمه وشدته مما بلغ به حد القسوة والظلم ، وكان اقل العقاب عنده القتل حتى امر المهلب بن ابي صفرة بقوله : « ومن خفته على المعصية قِبَلَكَ فاقتله ، فاني قاتل من قِبَلي . ومن كان عندي مِنْ وَليّ (يعني قريب او نسيب) مَنْ هرب عنك فاعلمني مكانه فاني ارى ان آخذ الولي بالولي والسمي بالسمي .

ولا حاجة الى الاستشهاد بحوادث قتل الحجاج فيها اشخاصا من اجل سبب تافه في نظرنا ولكنه جد مهم في نظر الحجاج لدوام السلطان الاموي . وكان الحجاج يقول : اني اقتل الثلث في سبيل الثلثين ، واقتل الثلثين في سبيل الثلث .

وكان من حسناته انه كان لا يقبل الشفاعة من احد ولا باحد حتى ولو كانوا اهله . وقد اراد من عماله ايضاً الا يقبلوا الشفاعة .

واعترف الحجاج بانه لجوج حقود حسود . والحق انه لجوج وخصوصاً مع قواده كالمهلب وابن الاشعث وغيرهما من الذين اغاظهم بلجاجته حتى اخرجهم عليه كابن الاشعث مثلا . على انه كان في ذلك عادلا عارفاً للحق اذا امر امراً ثم رأى الحق في خلافه نقضه — هذا اذا لم يكن متصلا بسياسته العامة — .

وقد كان الحجاج تقياً يتحوب من اقل شي حتى انه « كان اذا ضحك — على قلة ضحكه في جد او هزل — والى بين الاستغفار » ، وكان لا يشرب خمراً . . . ولم يسق على موائده الا الماء بالعسل او اللبن صريحا . وكان يصلي وربما صلى اماما . وكذلك قد حج .

وكان الحجاج فوق ذلك كريما « يطعم في كل يوم على الف مائدة على كل مائدة عشرة ، وكان يتفقدهم بنفسه » ويوصي باكرامهم ، الا انه كان يخص بموائده هذه اهل الشام .

ونسبوا للحجاج مظالم كثيرة بعضها صحيح واكثرها مبالغة، فقالوا انه « من اظلم العمال (الحكام) واسفكهم للدماء زعموا انه قتل من الاشراف والرؤساء مائة وعشرين الفاً سوى العوام وسوى من قُتل من عساكره وفي حروبه . ولما مات وُجد في حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة منهم ستة عشر الف امرأة مجردة (لاثياب عليها) . وزعموا انه كان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ، ولم يكن لحبسه ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ومن المطر والبرد في الشتاء . . . ولا ريب في ان هذه كلها تهم موضوعة لا يوثق بها في شيء .

الحجاج والادب

يجد الانسان الى جانب اصلاحات الحجاج العمرانية والادارية آثاراً ادبية ظاهرة خدم بها اللغة العربية والادب العربي .

١ — نقل الدواوين — وقد مر الكلام عليها موجزاً من قبل ، هنا موضع تبيان اثر ذلك في الادب العربي :

لا ريب في ان الحجاج هو الذي نفذ نقل الدواوين في العراق بغيرة وحزم وهكذا حول اللغة العربية من لغة قوم ودين الى لغة امبرطورية . لقد ادخل الحجاج بذلك على اللغة العربية عناصر حياة جديدة من التعابير السياسية والادارية والمالية ؛ دع عنك ان ذلك حمل الناس : عرباً وعجماً ومسلمين وغير مسلمين على اتقان هذه اللغة وصقلها ونشرها .

٢ — اعجام القرآن وتحريكه — لما اشتق العرب خطهم من الخطوط السريانية في حديث يطول تركوها مهملة — لا نقط تميز حروفها — وتركوها بلا حركات مما ادى الى الخطأ في القراءة فضلاً عن الصعوبة البالغة، فان كلمة مثل « فرح » اذا وضعت عليها النقط والحركات تُقرأ على ثمانية واربعين وجهاً ، فما قولك في جملة طويلة او مقال كبير او كتاب تام .

ولما جاء الحجاج الى العراق كانت الحركات والنقط قد وضعت، وضعها ابو الاسود الدؤلي كما ذكروا (عام ٦٩ هـ) ولكن استعمالها كان مقصوراً على امور بسيطة وكان

القرآن الكريم منزهاً عنها . خشي الحجاج ان يتسرب الخطأ الى (القرآن) الكريم كما تسرب الى غيره فامر باعجامه ووضع الحركات عليه فثارت في وجهه ثائرة عظيمة واتهموه بانه يبدل كلام الله . ولكن الحجاج ادى بذلك للادب والاسلام خدمة جليلة .

٣ – تشجيع الشعراء = وكذلك لما ورد الحجاج العراق كان العراق يغلي بمجالس الشعر وقصائد الشعراء فاخذ بما استقر في نفسه من ذوق ادبي ومن سياسة ، يفسح في مجالسه المجال للشعراء ويكرمهم على ما يقولون . وهو الذي ارسل جريراً الى بلاط عبد الملك ، بعد ان كان شاعره الخاص او كاد .

٤ – مجالس الادب = وكان الحجاج يعقد مجالس الادب والسمر على نمط ما كان يفعل خلفاء بني امية ، الا انه كان يرمي في الحقيقة الى ابعد من التفكه بالشعر والطرافة من الاحاديث . لقد كان يريد ان يعرف اخبار الناس حتى يستفيد من اختبارهم ويعرف كيف يسوسهم ، الا ان ذلك قد افاد الادب .

٥ – الخطابة = ولقد وهب الحجاج اللغة العربية ثروة خطابيـة هامة نرى ان نستعرض خصائصها فيما يلي :

خصائص الخطابة عند الحجاج – كالخصائص الادبية عند كل اديب – قسمان : قسم ينطبق على العصر كله وقسم يتميز به الحجاج وحده . فاما الخصائص العامة فهي :

ا . الايجاز ، فان الخطب في صدر الاسلام كانت على العموم قصيرة لان الخطيب كان يعبر عما يريد باقل قدر من الكلمات . وكان لا يستطرد الى امور خارجة عن غايته ولا يعرف المقدمات ولا التعليق ولا الجدل .

ب . الجزالة في اللفظ -- وكان العرب في صدر الاسلام يعرفون مواقع الكلمات فلا يستعملون كلمة الا في محلها المخصوص ومعناها الصحيح .

ج . المتانة في التركيب – وكان الكلام الصحيح لم يزل فطرة في العرب وسليقة ، فكان اسلوبهم من اجل ذلك صافيا وتركيب كلامهم قويا لا حشو فيه ولا تقديم او تأخير في غير محله .

د . قصر الجمل – يظهر لنا من استعراض كلام العرب عامة وخطبهم خاصة ان

جملهم كانت قصيرة . وكانوا اذا احتاجوا الى مد القول في امر ما فصلوا جمله وجعلوها قصيرة ما امكن .

الصناعة — ويزعم بعض الناس ان الصناعة من خصائص العصر العباسي ؛ والصواب انها من خصائص اللغة العربية وانها كانت منذ الجاهلية، ولكن ادباء العصر العباسي اكثروا منها وجعلوها هدفاً .

اما السجع فلا حاجة الى البرهان على وجوده في الجاهلية والاسلام . واما الموازنة والتشبيه والاستعارة والكناية والتورية وما الى ذلك فظاهرة في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم وفي خطب صدر الاسلام ، ولكن ذلك كله مستعمل بقدر على خلاف ما عرفه العصر العباسي .

و . الاقتباس — وقد كثر في خطب صدر الاسلام الاقتباس من القرآن الكريم ومن الشعر والامثال حتى انه ما كانت خطبة تخلو من ذلك . وكثيراً ما كانت الخطبة مجموعاً من الاقتباسات المختلفة ، وكان الخطيب يعبر عما يريده هو باقوال سائرة مشهورة .

*

اما الخطبة نفسها فلم تكن الا الكلام العادي المتداول في مجالس الادب يقال ارتجالا مع شيء من الاهتمام بالمناسبة التي يقال فيها ومن ترتيب القول ووضوح العرض . واذا علمنا ان الخطب كانت لتبليغ الامور الادارية او بسط سياسة الحكام او شرح وجهة نظر الحكومة بالاغراء والوعيد والاقناع والتأثير علمنا ان العنصر الشخصي فيها لا يحتل مركزاً بارزاً . وان الفرق بين خطب الخطباء المختلفين قليل البروز ايضاً .

*

اما الخصائص الخاصة في خطب الحجاج فتتمثل في ما يلي : —

ا . ظهور اثر الحزم فيها — لقد كان تهديد الحجاج ووعيده ظاهرين شديدين في خطبه ؛ وكان تنفيذ كل كلمة يقولها يخلع على خطبه صفة بارزة من الحزم لم تكن موجودة عند الذين سبقوه ، الا ما كان من خطب زياد بن ابيه التي لم تكن تبلغ في ذلك مبلغ خطب الحجاج .

ب · سعة الدراية — وكان الحجاج بلا شك واسع الدراية بثلاثة امور ظهرت ظهوراً بارزاً في خطبة خاصة : (١) سعة الاطلاع على اشعار العرب وامثالهم وما لهم من البلاغة، مع حفظ واف من القرآن الكريم ، ولا غرو فقد كان الحجاج يعلم القرآن · ثم (٢) علمه باخبار الناس من محامد ومثالب مما جعل تهديده ووعيده موجهاً الى اناس باعيانهم وصريحاً · و (٣) نفوذ بصره الى دخائل النفوس فان خطب الحجاج تنكشف عن مقدره في التحليل النفسي كان يؤثر بها في الناس، وكان يعرف كيف يضع وعيده وتهديده واين يضعهما ومتى يفعل ذلك ·

و · المقدرة الخطابية — وكان للحجاج مع فصاحته وبلاغته شخصية خطابية بارزة تحمل الناس على ان يستمعوا اليه ويرضوا بما يقول على كرههم اياه . وكان يحسن الجدل والاقناع في ثنايا خطبه ·

المختـــار من كلام الحجاج

١ . لما قتل عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فصعد الحجاج المنبر وقال :

الا ان ابن الزبير كان من احبار [1] هذه الامة حتى رغب في الخلافة ونازع فيها وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعُصاة ، لمنع آدمَ حرمةُ الجنة ، لان الله تعالى خلقه بيده ، واسجد له ملائكته ، واباحه جنّته ؛ فلما عصاه اخرجه منها بخطيئته . وآدم على الله اكرم من ابن الزبير ، والجنة اعظم حرمة من الكعبة .

٢ . لما ولي الحجاج العراق اراد ان يعلن سياسته فتوجه الى مسجد الكوفة وخطب فيه خطبته المشهورة .

(ذكرت هذه الخطبة تامة في اثناء ترجمته – راجع ص٩)

٣ . لما كان اليوم الثالث على وصول الحجاج الى العراق خرج من القصر فسمع تكبيراً في السوق فراعه ذلك ، فصعد المنبر وقال :

يا اهل العراق ، يا اهلَ الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، وبني اللكيعة [2] وعبيدَ العصا واولادَ الاماء ، والفَقَعُ بالقَرْقر [3] ، اني سمعت تكبيراً لا يُراد اللهُ به ، وانما يُراد به الشيطانُ ألا إنها عَجاجةٌ تحتها قَصْف ؛ وانما مَثَلي ومَثَلكم ما قال عمرو بن بَرّاق الهَمْداني :

وكنت اذا قوم غَزَوْني غزوتهم ... فهل انا في ذا – يا لَهَمْدانَ – ظالمُ ؟
متى تجمعِ القلبَ الذكي وصارماً ... وانفاً حمِيّاً تَجتَنبْكَ المظالم !

---

(١) الحبر – بكسر الحاء – العالم الصالح . (٢) اللئيمة . (٣) الفقع : الكمأة الرخوة ؛ القرقر : الارض المطمئنة اللينة ، وذلك مثل يضرب للذليل .

أما والله لا تقرع عصاً عصاً الا جعلتها كامس الدابر

٤ بعد ان استقر الحجاج في الكوفة وارهب اهلها سار الى البصرة وتوعد اهلها خاصة وهددهم ، فقال :

ايها الناس : من اعياه داؤه فعندي دواؤه ، ومن استطال اجله فعلي ان أعجله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه. ان للشيطان طيفاً وللسلطان سيفا ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه.

اني أنذر ثم لا أنظر [٤] ، واحذر ثم لا أعذر ، واتوعد ثم لا اعفو . إنما افسدكم ترنيق ولاتكم ، ومن استرخى لببه [٥] ساء ادبه . ان الحزم والعزم سلباني سوطي وابدلاني به سيفي ، فقائمه في يدي ، ونجاده [٦] في عنقي ، وذبابه [٧] قلادة لمن عصاني . والله لا آمر احدكم ان يخرج من باب من ابواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه الا ضربت عنقه .

٥ . وخطب مرة بين اهل الكوفة واهل الشام فقال :

يا اهل الكوفة ، ان الفتنة تلقح بالنجوى [٨] وتنتج بالشكوى ، وتحصد بالسيف . اما والله إن أبغضتموني لا تضروني ، وان احببتموني لا تنفعوني ؛ وما انا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح الى مودتكم . زعمتم اني ساحر ؛ وقد قال الله تعالى : « ولا يفلح الساحر » وقد افلحت ؛ وزعمتم اني اعلم الاسم الاكبر [٩] ، فلما تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟

---

(٤) انظر : اجل العقوبة واخرها (٥) ترنيق : ضعف ، اللبب حزام صدر الدابة ؛ إشارة الى ضعف الارادة • (٦) حمائل السيف . (٧) حد السيف . (٨) الحديث بين اثنين سراً
(٩) اسم من اسماء الله الحسنى لا يعلمه الا الاولياء، ومن دعا به استجاب له الله .

(ثم التفت الى اهل الشام فقال :)

لا زواجكم اطيب من المسك ، ولا بناؤكم آنَس بالقلب من الوَلد ؛ وما انتم الا كما قال اخو بني ذبيان :

اذا حاولت في اسد فجورا فاني لست منك ولست مني
هُمُ درعي التي استلأمت فيها الى يوم النسار وهم مجنّي [1]

بل انتم يا اهل الشام كما قال الله سبحانه : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهُمُ المنصورون ، وان جندنا لهُمُ الغالبون » .

٦ . وخطب الحجاج يصارح اهل العراق بالكراهية لهم فقال :

يا اهل العراق ، اني لم اجد دواء أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث ، لولا طيبُ ليلة الاياب وفرحةَ القَفَل [2] ، فانها تُعقب راحة واني لا اريد ان ارى الفرح عندكم ولا الراحة بكم . وما اراكم الا كارهين لمقالتي ؛ وانا والله لرؤيتكم اكره . ولولا ما اريد من تنفيذ طاعة امير المؤمنين فيكم ، ما حمّلت نفسي مقاساتكم والصبر على النظر اليكم . والله اسأل حسن العون عليكم .

٧ . اراد الحجاج ان يذهب الى الحج فاستخلف ولده على اهل العراق مكانه ، واعلن ذلك في خطبته التالية :

يا أهلَ العراق ، يا اهل النفاق والشقاق ، اني اريد الحج وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ؛ هذا ، وما كنتم له باهل . واوصيته فيكم بخلاف ما اوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الانصار : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اوصى ان يُقبل من محسنهم وان يُتجاوز مسيئهم ؛ واني امرته ألاّ يَقبلَ من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم .

الا وانكم ستقولون بعدي مقالة ما يمنعكم من اظهارها الا مخافتي : الا وانكم

---

(١) استلأم لبس اللأمة : الدرع . النسار : ماء لبني عامر حدثت عنه موقعة . المجن : الترس ، او ما يدفع به عن النفس . (٢) الرجوع .

ستقولون بعدي : لا احسن الله له الصحابة . الا واني معجل لكم الاجابة : لا احسن الله الخلافة عليكم .

٨ . في غداة يوم جُمُعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشي جاء الى الحجاج بريد من اليمن بوفاة اخيه محمد — وكان واليا على اليمن — ففرح اهل العراق وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض [1] جناحه . فخرج الحجاج فصعد المنبر ثم خطب الناس فقال :

ايها الناسُ ، محمدانِ في يوم واحد ! اما واللهِ ما كنت احب انهما معي في الحياة الدنيا ، لما ارجو من ثواب الله لهما في الآخرة . وأيمُ الله ليوشكن [2] الباقي مني ومنكم ان يفنى والجديدُ ان يبلى ، والحي مني ومنكم ان يموت ، وان تُدال [3] الارض منا كما أدِلنا منها ، فتأكل لحومنا وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها واكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « ونُفِخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون [4] »

(ثم تمثل بهذين البيتين)

عزائي نبيُّ الله من كل ميّتٍ ، وحسبي ثواب الله من كل هالك
اذا ما لقيتُ الله عني راضياً فان سرور النفس فيما هنالك

. مرض الحجاج يوماً ففرح اهل العراق وارجفوا (تحدثوا) بموته . فلما بلغه الخبر تحامل حتى صعد المنبر فقال :

ان طائفة من اهل العراق ، اهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا : «مات الحجاج» . ومات الحجاج ، فمه ! وهل يرجو الحجاج الخير الا بعد الموت ؟ والله ما يسرني ألاّ اموتَ وان لي الدنيا وما فيها . وما رأيت الله رضي بالتخليد الا لاهون خلقه عليه : ابليسَ ، قال : « انظرني الى يوم يبعثون [5] » . قال : « انك من

---

(١) انكسر بعد ان كان مجبورا . (٢) اوشك : قرب . (٣) ادال : نصر على ، انتقم من . . . (٤) الجدث : القبر . نسل : اسرع . (٥) انظر : اجل ، اخر . يوم يبعثون : يوم القيامة .

المنظرين ».

ولقد دعا الله العبدُ الصالح (١) فقال : « رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي » ، فاعطاه ذلك الا البقاء ، فما عسى ان يكون ايها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل . كأني والله بكل حي منكم ميتا ، وبكل رطب يابسا ، (قد) نقل في ثياب اكفانه الى ثلاث اذرع طولا في ذراع عرضا ، واكلت الارض لحمه ، ومصت صديدة ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله . ان الذين يعقلون يعلمون ما اقول .

١٠ . بعد معركة دير الجماجم عام ٨٥ هـ (راجع ص١٣) خطب فقال :

يا اهل العراق ، ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاء والشغاف ثم افضى الى المخاخ والاصماخ (٢) ، ثم ارتفع فعشعش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا ، واشعركم خلافا . اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ومؤامراً تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة ، او يحجزكم (٣) اسلام او ينفعكم بيان ؟

الستم اصحابي بالاهواز (٤) ؟ حيث رُمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته ، وانا ارميكم بطرفي ، وانتم تتسللون لواذا (٥) ، وتنهزمون سراعا ؟ ثم يومُ الزاوية ، وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم (٦) وتنازعكم وتخاذلكم ، وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم ، اذ وليتم كالابل الشوارد الى اوطانها ، النوازع الى اعطانها (٧) ، لا يسأل المرء عن اخيه ، ولا يلوي الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح وقعصتكم الرماح . ثم يوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم

---

(١) سليمان بن داود . (٢) الشغاف : غلاف القلب . المخ : داخل العظم الاصماخ : خرق الاذن . (٣) يمنعكم . (٤) اشارة الى معارك . (٥) جرب بعضكم مستترا ببعض . (٦) الفشل : الضعف والانكسار . النكوص : الرجوع ، التخلي (٧) العطن : مكان الابل .

به كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله [١] ويذهل الخليل عن خليله .

يا اهل العراق ، والكفرات بعد الفجرات ، والغدرات بعد الختران ، والنزوات بعد النزوات [١] ، ان بعثتكم الى ثغوركم غللتما وخنتم [٢] ، وان امنتم ارجفتم [٣] ، وان خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم ناكث ، او استغواكم غاو ، او استنصركم ظالم ، او استعضدكم [٤] خالع الا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه [٥] ؟

يا اهل العراق : ألم تنهكم المواعظ ، ألم تزجركم الوقائع ؟

(ثم التفت الى اهل الشام وهم حول المنبر وقال) :

يا اهل الشام ، انما انا لكم كالظليم الرامح عن فراخه [٦] ، ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر [٧] ، ويحميها من الضباب [٨] ويحرسها من الذئاب .

يا اهل الشام ، انتم الجنة [٩] والرداء ، وانتم العدة والحذاء .

١١ . لما مات الخليفة عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ) خطب الحجاج فقال :

ايها الناس ، ان الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم الى نفسه فقال : « انك ميت وانهم ميتون » ؛ وقال : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفأن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان الشهيد

---

(١) الهامة الرأس المقيل . المستقر ، الموضع ، يعني يقطع الرأس . (٢) الختر الغدر نزا وثب في طلب الشر الثغور . الاماكن التي يخشى مجيء العدو منها برا او بحرا ، يعني مخافر الحدود . غل خان (٣) ارجف (تحدث بالذعر بين الناس) او تهيأ للقتال (٤) استنجد بكم (٥) قلتم فيه خيرا (٦) الظليم ذكر النعام . الرامح المدافع (٧) المدر الطين . اكن ستر (٨) الضب الحردون (٩) الستر ، الترس .

لمظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل الذكر [١] الذي جرّبته الامور واحكمته التجاربُ ، معَ الفقه وقراءة القرآن والمروءة الظاهرة ، واللين لاهـل الحق والوطء لاهل الزيغ ؛ فكان رابعاً من الولاة المهديين الراشدين ؛ فاختار الله له ما عنده والحقه بهم ، وعهد الى شبهه [٢] في العقل والمروءة والحزم والجلد ، والقيام بامر الله وخلافته ، فاسمعوا له واطيعوه .

ايها الناس ، اياكم والزيغَ فان الزيغ لا يَحيق [٣] الا باهله . ورأيتم سيرتي فيكم وعرفت خلافكم [٤] وطيبكم ، على معرفتي بكم . ولو علمت ان احداً اقوى عليكم مني او اعرف بكم ما وليتكُم ، فاياي واياكم . من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غماً .

***

ان الخطب التي مرت معنا سياسية ادارية ؛ امـا الخطب الثانية فهي دينية اراد اخجاج الوعظ بها .

١٢ . ايها الناس ، قد اصبحتم في اجل منقوص وعمـل محفوظ . ربّ دائب مُضيّع وساعٍ لغيره ، والنار بين ايديكم والجنة امامكم . خذوا من انفسكم لانفسكم ومن غناكم لفقركم ، ومما في ايديكم لما بين ايديكم ؛ فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الاموات لم يكونوا احياء ؛ وكل ما ترونه فانـه ذاهب .

هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ؛ هذه الشمس التي طلعت عـلى التبابعة والاكاسرة و (على) خزائنهم السائرة بـين ايديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم .

اين الملوك الاولون ؟ اين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراط منصوب ، وجهنم تزفر وتتوقد ؛ واهل الجنة ينعمون ، في روضة يُحبرون . جعلنا الله واياكم من « الذين اذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صُماً وعُمياناً » .

---

(١) يقصد عبد الملك بن مروان (٢) يقصد الوليد بن عبد الملك (٣) يحيط . (٤) (الرديء ومن لا خير فيه) .

١٣ . اللهم أرني الغيَّ غيًا فاجتنبَه ، وارني الهدى هدى فاتبعَه ، ولا تكلني الى نفسي فاضِلَّ ضلالا بعيداً . والله ما احب ان ما مضى من الدنيا الي بعمامتي هذه ، ولما بقيَ منها اشبه بما مضى من الماء بالماء .

١٤ . ايها الناسُ ، اقدعوا هذه الانفسَ فانها تسألُ شيء اذا أُعطيت واعدى شيء اذا سئلت . فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً ، فقادها بخطامها الى الى طاعة الله وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فاني رأيت الصبر عن محارم الله ايسر من الصبر على عذاب الله .

١٥ . ان امرأ اتت عليه ساعةٌ من عُمُره ، لم يذكرْ فيها ربه ويستغفر ربه من ذنبه ويفكرْ في معاده ، لجديرٌ ان يطول حزنه ويتضاعف اسفه . ان ان الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء . فلا يغرنّكم شاهدُ الدنيا عن غائب الآخرة . واقهَروا طولَ الامل بقصرَ الاجل .

١٦ قال مالكُ بن دينار : غدوت الى الجمعة فجلست قريباً من المنبر فصعد الحجاج ثم قال :

امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ راقب ربه، امرؤ زوّر عمله ، امرؤ فكر في ما يقرأه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه ، امرؤ كان عند همه آمراً وعند هواه زاجرا ، امرؤ اخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله — فان قاده الى حق تبعه وان قاده الى معصية الله كفه — .

اننا والله ما خُلقنا للفناء ، وانما خلقنا للبقاء . وانما ننتقل من دار الى دار .

---

(١) حسن ، جمل

١٧ وخطب الحجاج بالبصرة فقال :

قال الله تعالى . « فاتقوا الله ما استطعتم ! » فهذه لله وفيها مَثوبة [١] ؛ وقال : « واسمعوا واطيعوا ! » وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله عبد الملك بن مروان . اما والله لو امرت الناس ان يأخذوا في باب واحد فاخذوا في باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ؛ ولو قتلت ربيعة ومُضَر لكان لي حلالا .

عذيري [٢] من اهل هذه الحمراء [٣] ، يرمي احدهم بالحجر الى السماء ويقول : يكون الى ان يقع هذا خير ! والله لاجعلنهم كالرسم الداثر وكالامس الغابر . عذيري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رَجَز الاعراب ؛ اما والله لو ادركته لضربت عنقه — يعني عبد الله بن مسعود — . عذيري من سليمان بن داوود يقول لربه : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي » . كان والله — فيما علمت — عبداً حسوداً بخيلا .

(١) اجر . (٢) من يعذرني ، من ينصرني على . (٣) البصرة .